20
يوم في عكا

نحن في محطة القطارات في القدس، إجراءات الأمن متشددة للغاية. كنت قررت زيارة عكا التي طالما حلمت بها، غالبت خوفي وحزمت أمري على مضض. الأمر يتعلق هنا بتجاوز الخط الأخضر، بالرحيل إلى "عندهم" أو على نحو أدقّ الذهاب إلى حيث أصبح "عندهم". هناك في مجتمع العدو، ثمة مظاهر معينة علي التقيد بها حين التعبير عن مشاعري جسدًا وروحًا وعند تنقلي ضمن السكان، ثمة ضرورة للإيحاء بأنني مجرد سائحة تزور، أزور ما كان فيما مضى مدينة فلسطينية، مدينة أهلي... أعلم كل ما يجب علي اتباعه من التزامات إنما لا يقلل ذلك من خشيتي شيئًا.

ركبنا "شيروت"، كما يسمى القطار هناك، لم يكن مريحًا ولم نشعر

بالطمأنينة فيه. كان الركاب من الإسرائيليين فقط، خصوصًا العساكر. كنا كدخيلين وخشينا أن يكتشفوا ذلك فحرصنا على عدم الكلام بالعربية. تتابعت المناظر أمامي في خليط عجيب بين عربية واسرائيلية، أسماء المحطات مكتوبة أحيانًا بالعربية أو الانكليزية، وأحيان أخرى فقط بالعبرية وعندها كنا نحسّ بالضياع تمامًا. ساعتان ونصف من سفر لم أصادف قبله هذا القدر من الإرهاق والإزعاج، لدرجة أنني في لحظة ما شعرت بحنين تجاه شركة سكك الحديد بفرنسا وتذكرت جودة قطاراتهم ووجوه ركابهم المسالمة السمحة.

حين وصلنا عكا توجهنا على نحو تلقائي إلى المدينة العربية القديمة. يالروعتها بمينائها القديم وأسوارها وسوقها وجامعها الشهير "الجزار". نتنزه في أزقتها وأنيس يسير بمحاذاتي صامتًا أما أنا فيغمرني شعور بضرورة تعويض نقص ما. لا شيء ملموسًا أدركه، مجرد احساس بأن عليَّ استغلال كل لحظة وملء رئتاي بهذا الهواء الذي كان كله لي ولأهلي.

ثمة خط تماس نشعر بوجوده دون أن يوجد حقًا، يفصل المدينة إلى قسمين عربي واسرائيلي. اخترنا الجزء العربي بالطبع، ولحظنا اختلاف ما يميز سكان المدينة عن أهل القدس وبيت لحم ورام الله ومحيطها. كأن هويتهم قد ضعفت، كأنهم يملكون شيئًا ما أكثر من غيرهم... وكأن شيئًا ما ينقصهم أكثر من غيرهم. المدينة جدّ جميلة لكنها تبدو مهجورة ونظرات

سكانها حزينة، لا يتكلمون إلا فيما ندر كأنهم ينتظرون أمرًا مستحيلًا، أو أمرًا لن يأتي أبدًا. خلال تجولي عبرت خاطري بغتة مشاهد من "سجل اختفاء" فيلم إيليا سليمان.

كان ساري حدثنا عن مطعم كريستو المعروف المطلّ على الميناء. ذهبنا إلى هناك فأُخذنا بروعة المناظر وسحرنا على الأخص مشهد زوجين بثياب العرس، ما إن انتهيا من وجبة الطعام حتى توجها نحو قارب بحري وصعدا فيه استعدادا لجولة من الصور التذكارية، كل هذا تحت أنظار جمهور صغير مبتهج مكوّن على الأخص من صبية كانوا هنا يقضون الوقت بالغطس قفزًا من أعلى الصخور. بعد تناول السمك المقلي والرز والخضار والمثلجات، عدنا للمدينة في جولة أخيرة لتبادل الأحاديث مع الناس. لمست فضولهم الشديد واندهاشهم لاسيما بعد أن عرفوا مكان إقامتنا. أخبرونا بأن الفلسطينيين أمثالنا لا يأتون لرؤيتهم إلا نادرًا أما سكان الأراضي المحتلة فالزيارة ممنوعة عليهم، وقد يأتي من حين لحين بعض المهاجرين أمثالنا ممن لديهم جوزات سفر أوربية أو أميركية. تراءت لنا وحدتهم وعزلتهم وسوء حالتهم من كلماتهم القليلة.

راوتني رغبة شديدة بقضاء الليلة هناك، وكان هذا عسيرًا فلا يوجد سوى فندق واحد، لم نطمئن حقًا لصاحبه "بابوجا"، فقد طلب أسعارًا خيالية لغرفة غاية في الرداءة. ننصرف مع أن رغبتي كانت جنونية للبقاء في عكا

والاستيقاظ باكرًا للتجول فيها واستنشاق عطرها وتلمس أجوائها.

للأسف كان علينا أن نستقل القطار الأخير للعودة. وصلنا تل أبيب العاشرة مساءًا وأخذنا منها الحافلة للقدس. كان مستحيلا بالنسبة لي قضاء الليلة في تل أبيب، كنا نشعر بأنفسنا كمشتبه بهم، كنا في الأرض العدوة.

وداعًا عكا، عكا ناسي وأهلي، تركتك وشعور كبير بالاحباط يتملكني.

تركت هذه الزيارة لعكا لدينا شعورًا بنقصان، بأن شيئًا انقطع قبل اكتماله، هي اليوم مرسومة بذاكرتنا كشظايا من آمال، من مخاوف. نحاول مع الزمن خنقها وندرك أنه يجب قلب الصفحة والتفكير في الآتي. أتفحص رد فعل أنيس واستقصي أفكاره. لم يقل الكثير، لكنني كنت واثقة أنه كان مثلي مأخوذًا بدوامة فظيعة ومثلي أيضًا يتحفظ عن إظهار مشاعره. كان يريد الإيحاء بأنه يسيطر على الوضع، لكني كنت أحسّ في بعض اللحظات بأنه على حافة الانفجار، كأن جسده اليافع ذو الستة عشر عامًا وطور التحول المضطرب إلى سن البلوغ، وملامحه التي تتأرجح بين الطفولة والنضج، كأن كل هذا يحيل بينه وبين إيجاد وضعية مناسبة للتعبير عن مكنوناته. هل كان عليه أن يلعب ويلهو في هذه الرحلة العجيبة، أن يمر مرور الكرام على أكوام المشاعر التي نعبرها سوية؟ أم هل كان عليه أن يدبر أمره بنفسه، ويجعل من هذه القضية شأنه الخاص وجزءًا من حياته، وأذهب أنا حينها للرقاد مستريحة؟ في الحقيقة لا أدري وأجهل سبب مرافقته لي، ولمَ عليَّ

أن أحمّله مشقة كل هذا الحمل الثقيل. مع ذلك، ثمة صوت صغير كان يخاطبني بضرورة أن يكون هنا، بجانبي، في هذه الرحلة وبأن هذا واجب عليه تجاهي وواجب عليَّ تجاهه. في جميع الأحوال، يسير ترافقُنا معًا على ما يرام! إن تدهورت الأمور فيما بعد نرَ حينها. لكل شيء وقته.